ذخائر العرب
٢٥

الموازنة

بين شعر أبي تمام والبحتري

لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي
– ٣٧٠ هـ

تحقيق

السيد أحمد صقر

١

الطبعة الرابعة



دار المعارف

الموازنة

الناشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج. م. ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله سبحانه وتعالى إذ قدر لى أن أكون أول طابع لكتاب الموازنة بين الطائيين ، الذى ألفه أبو القاسم : الحسن بن بشر الآمدى المتوفى ، سنة سبعين وثلثمائة .

ولست أرتاب فى أن قولى هذا سيقع من نفس القارئ وعقله موقع العجب والإنكار . ولكنى على ثقة من أن عجبه سيزول ، وإنكاره سيحول إذا مامضى فى قراءة هذه السطور. وإنما قلت ذلك وأنا أعلم أنى قد سبقت إليه، وأنه قد طبع عدة مرات أولاها فى مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٢٨٧ ﻫ عن نسخة خطية كتبها عبد الكريم بن أحمد بن إدريس الصفدى ، فى شهر صفر من سنة ١١٢٩ ﻫ . وكانت هذه الطبعة هى الأصل لكل الطبعات التى صدرت بعدها .

وثانيتها فى مطبعة جريدة الإقبال ببيروت سنة ١٣٣٢ ﻫ .
وثالثتها فى مطبعة محمد صبيح وهى غير مؤرخة .
ورابعتها فى مطبعة حجازى بالقاهرة سنة ١٣٦٣ ﻫ = ١٩٤٤ م .
ثم أعيد طبعها سنة ١٣٧٣ ﻫ = ١٩٥٤ م .

وجميع هذه الطبعات ناقصة ومملوءة بالتحريف. ومن عجب أنها تشتمل على نصوص تشير إلى ذلك النقص .

ألم يقل الآمدى : « وأنا أبتدئ بذكر مساوى هذين الشاعرين لأختم بذكر محاسنهما ، وأذكر طرفاً من سرقات أبى تمام وإحالاته ، وغلطه ، وساقط شعره ، ومساوى البحترى فى أخذ ما أخذه من معانى أبى تمام ، وغير ذلك من غلط فى بعض معانيه . ثم أوازن من شعريهما بين قصيدتين إذا اتفقتا فى الوزن والقافية وإعراب القافية ، ثم بين معنى ومعنى ؛ فإن محاسنهما تظهر فى تضاعيف ذلك . ثم أذكر ما انفرد به كل واحد منهما فجوده من معنى سلكه ولم يسلكه صاحبه، وأورد

باباً لما وقع فى شعريهما من التشبيه ،وباباً للأمثال أختم بهما الرسالة، ثم أتبع ذلك بالاختيار المجرد من شعريهما ، وأجعله مؤلفاً على حروف المعجم ؛ ليقرب تناوله . . .» .

وكل من يقرأ كلام الآمدى لابد أن يقول لنفسه : وأين باب التشبيه ، وباب الأمثال اللذان قال الآمدى : إنه سيختم بهما كتابه ؟ وأين المختارات من شعر الشاعرين المجردة عن الموازنة ، والمؤلفة على حروف المعجم ؟

إن هذه الأبواب الثلاثة لاوجود لها فى النسخ المطبوعة . ومعنى ذلك بداهة أن الكتاب ناقص تعوزه الموضوعات التى لم ينشر حرف منها من قبل . على أن بعض تلك الزيادة موجودة فى النسخة الخطية الوحيدة الموجودة بدار الكتب المصرية .

وتبتدئ الزيادة فى طبعتنا هذه من صفحة ٤٥٨ ، وهى تشتمل على سبعة أبواب ، هى :

محو الرياح للديار .

ماقالاه فى سؤال الديار واستعجامها عن الجواب والبكاء عليها أيضاً .

باب آخر فى وصف الديار وساكنيها .

الدعاء للديار بالسقيا والخصب والنبات .

مايخلف الظاعنين فى الديار من الوحش وغيرها .

ماقالاه فى الوقوف على الديار وفى تعنيف الأصحاب إياهما على ذلك .

ماجاء عنهما فى ترك البكاء على الديار والنهى عنه .

وقد ملأت هذه الأبواب فى هذه الطبعة ثمانين صفحة ، غير الزيادات التى جاءت فى ثنايا القسم المطبوع قبلها .

والزيادة ليست مقصورة على هذه الأبواب فقط . ولكنها زيادة عظيمة تستغرق الجزء الثانى والثالث من طبعتنا هذه .

ومن أجل ذلك رأيت أن أنقل بعضها ، ليعلم القارئ أى خير ذاده عنه الطابعون للكتاب من قبل ؟

أما الزيادة التى تستغرق الجزء الثانى ، فهذه عناوينها :

ذكر الفراق والوداع والترحل عن الديار والبكاء على الظاعنين .

ما قالاه فى البكاء على الظاعنين .

ما لأبى تمام فى البكاء على النساء المفارقات .

ومن ابتداءاتهما من باب الفراق فى معان شتى .

البكاء على الظاعنين .

بكاء النساء المفارقات .

ماذكراه من استيلاء النوى على الأحباب المفارقين .

ذكر الأنفاس والحرق والزفرات عند الفراق .

زوال الصبر وقلة التجلد .

ما قالا فى قتل الفراق للمفارق وسفك دمه .

ماقالاه فى الغزل من أوصاف النساء ونعوتهن وشدة الشوق والتذكر والوجد والغرام .

ذكر ابتداءاتهما بتشبيه النساء بالظباء والبقر .

ابتداءاتهما بذكر الثغور .

ابتداءاتهما بذكر البكاء والدموع .

ابتداءاتهما بذكر السهر وطول الليل .

باب آخر فى الابتداءات .

مما افتتحه البحترى بالهجر .

ومما جاء فى ابتداءاته من ذكر العيون .

ومن ابتداءات البحترى فى التشوق .

ومن ابتداءات البحترى فى معان شتى وهى كثيرة .

ذكر ما قالاه فى الجمال والبهجة وحسن الوجوه .

ما قالاه فى وصف الثغور .

ما قالاه فى وصف القدود والخصور والأخصاف وثقل الأرداف وحسن المشى .

ما قالاه في شدة الحب والوجد والتشوق والغرام والحزن وانتجاز المواعيد، وإخلافها، ونحو ذلك. وفي الشوق والصبابة.

ما قيل في ائتلاف المحبين.

باب في نوح الحمام.

باب في وصفهما للأيام التي خلت، والأزمان التي حمداها، والتذكر لها، والأسى عليها.

ما جاء عنهما في وسط كلامهما من هذا الباب.

ما جاء عنهما في طروق الخيال.

ما قالاه في الشيب والشباب.

ما جاء عنهما في وسط كلامهما من ذكر الشيب والشباب.

كره النساء للمشيب.

نزول الشيب قبل حينه.

البكاء على الشباب والتعزي عنه والعزوف عن الصبا.

الاعتذار من الشيب.

مدح الشيب والتعزي عنه.

ذكر الكبر وشكوى الدهر وتغير الحال.

● باب في ذكر الزمان. وذكر ظلمه واعوجاجه، وتعذر الرزق على ذوي الحزم والفهم، وتيسره لذوي الجهل والعجز. وفي التعزي والصبر والقناعة. وما قالاه في ضد ذلك من بعد الهمة، والنهوض في طلب الرزق، والسير على الإبل، وقطع الفيافي. وفي مواعظ وآداب.

ماقالاه من هذه المعاني في وسط الكلام.

في المواعظ والآداب.

في الصبر والقناعة.

ذم ذوي الغنى على البخل، وذكر مساعدة الدهر لذوي الجهل، وتحامله على أهل الفضل والعقل.

ماقالاه في طلب الرزق والنهوض إليه.

وما ذكرا فيه سرى الإبل :

باب الشحوب والتغيير من الأسفار .

● الأبواب التى خرجا فيها من النسيب إلى المديح .

وجه آخر من الخروج ، وهو خروجهما إلى المديح بمخاطبة النساء .

وجه آخر من خروجهما إلى المدح ، وهو وصف الرياح ، وتشبيه أخلاق الممدوح بها .

وجه آخر من خروجهما إلى المدح .

● باب المديح .

أول مابدأ به من مدائحهما :

ذكر السؤدد والمجد وعلو القدر .

ثم مايخص الخلفاء من ذلك دون غيرهم :

من ذكر الخلافة وما يتصرف عليه القول من معانيها .

ذكر الملك والدولة .

وذكر مايخص أهل بيت النبوة من المدح دون من سواهم :

من ذلك ذكر طاعتهم ، والمحبة لهم ، والمعرفة لحقهم .

وذكر الآلة التى كانت للنبى عليه السلام فصارت إليهم :

وذكر الآثار .

وذكر علو القدر ، وعظم الفضل .

وذكر تأييد الدين وتقوية أمره .

وذكر الرأفة والرحمة .

وذكر الجلال والجمال والبهاء والجهارة والهيبة .

وذكر ماينبغي أن يمدح به الخلفاء من الجود والكرم .

وذكر ماينبغي أن يمدحوا به من الشجاعة والبأس .

* * *

وبانتهاء هذه الموضوعات ، تنتهى مخطوطة دار الكتب المصرية .

* * *

وأما موضوعات الجزء الثالث التى جاءت فى النسخ الأخرى ، فإنها تكاد تكون ضعف موضوعات الجزء الثانى .وكنت على نية سردها ، لولا أنى رأيت المقام قد طال ، وخشيت على القارئ الملال ؛ فرأيت أن أشير إلى بعض الموضوعات الهامة التى تناولها الآمدى بالدرس والموازنة ؛ ليعلم القارئ من علمها ، ويتصور مقدار عظمها .

فمن تلك الموضوعات :

كتاب الجود ، والوصف ، والفخر ، والعتاب ، والوعيد ، والهجاء ، والاعتذار ، والشراب ، ومعاطاة الندمان ، ووصف الغلمان ، والتوجع من العلل والنكبات ، ووصف قصائدهما والبأس والنجدة ، والمراثى .

وكل باب من هذه الأبواب يحتوى على عدة فصول تروعك كثرتها إذا ما ذكرت لك تفصيل بعضها وحسبى . أن أقتصر على التمثيل بثلاثة أبواب : وهى باب الجود ، وباب المراثى ، وباب البأس والنجدة .

أما باب الجود فقد قال الآمدى فى صدره : « هذا باب يعول عليه الشعراء فى المديح ؛ لأن الجود قد يكون فى الملاك والسوقة والشريف والدون .

وأنا الآن أميز فى هذا الكتاب أنواع الجود والكرم ، وأنتزع من القصائد الأبيات المتجانسة ، وأبوبها أبواباً ، وأوازن بينها ليصح القول ويلوح التفضيل .

فأبتدئ بما قالاه فى الرجاء والتأميل ، وفى الوعد وإنجازه ، وفى الابتداء بالعطاء وفى البشر عند السؤال ، وفى الإكثار من العطاء ، والقصد والإسراف ، وتعجيل العطاء ، ومتابعة العطاء ، وتشبيه جود الجواد بالسحاب والغيث والأنواء وبالبحر ، وفى خبط الجواد بنائله من غير تمييز ، وفى عذل الجواد على الجود ، وفى تعجرف الجواد على ماله حتى يتلفه ، ودفع جود الجواد وعطاياه لنوائب الدهر ، وإعطاء الجواد حتى لا يجد من يعطيه ، وفى التذاذ الجواد بالجود ، وإغناء الجواد للسائلين حتى يكونوا مسئولين ، واكتساب الشرف بالعطاء ، وفى اعتذار الجواد بعد العطاء والاعتذار له ، وفى إخفاء الجواد لنائله ، وفى شفاعة الجواد إلى غيره مما يجود به ، وفيما استن

الكريم للناس من الكرم حتى اقتدوا به ، وفى نوادر من باب الجود ، وفى الاعتداد بنعم الممدوحين ، وفى الشكر والثناء » .

* * *

وأما باب المراثى فقد بدأه الآمدى بقوله :

« قد جرت العادة فى كل باب أن تعتبر فيه الابتداءات ، فيجب أن أقدم ابتداءات هذا الباب . قال أبو تمام :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر   وليس لعين لم يفض ماؤها عذر

قد عابه قوم من متقدمى الشيوخ بهذا ، وقالوا : قوله : " كذا " إشارة إلى مجهول غير معروف ، وقالوا : كان ينبغى أن يقول كما قال البحترى :

انظر إلى العلياء كيف تضام   ومآتم الأحساب كيف تقام

فأوضح المعنى بقوله : " ومآتم الأحساب كيف تقام " . وليس هذا العجز بمبين عن معنى صدره كما ذكروا ، وإنما هو قسم منسوق على قسم آخر له معنى غير معناه . فقوله : " انظر إلى العلياء كيف تضام " مثل قول أبى تمام : " كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر " وإنما نظر كل واحد منهما إلى الجيوب تشقق ، والستور تهتك ، والأعلام تمزق ، والرماح تكسر . فإن مثل هذا يفعل عند هلاك السادة من الأمراء وغيرهم ، والخيل إنما تعقر عند قبورهم ، وأشباه هذا . فلما عاين هذان الشاعران من الأمر ما عايناه ، قال هذا : " فليجل الخطب وليفدح الأمر " وقال ذاك " انظر إلى العلياء كيف تضام " . ونظر البحترى إلى كثرة النساء وعظم أقدارهن وانهتاكهن وما يفعلن بأنفسهن ، فأتم البيت بأن قال : " ومآتم الأحساب كيف تقام " لأن المآتم هى اجتماع النساء فى الفجائع ومساعدة بعضهن لبعض . فما على أحدهما فيما قاله طعن » .

وإنما عنيت بإيراد هذا النص لأهميته فى توثيق الكتاب ، ولأن الآمدى قد أشار إليه فى القسم المطبوع منه بقوله ص ٣٩١ : « وذكر أبو عبيد الله : محمد بن داود بن الجراح فى كتابه ، أن مما عيب من ابتداءات الطائى قوله : كذا فليجل الخطب . . . وأما قوله : " كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر " فليس بمعيب عندى ، وقد ذكرته فى ابتداءات المراثى وأخبرت بمعناه » .

وكان هذا القول خليقاً بأن يلفت نظر الطابعين إلى خلو طبعاتهم من باب المراثى.

وبعد أن فرغ الآمدى من الموازنة بين الابتداءات فى المراثى ، وازن بينهما فى أنواع تلك المعانى ، وهى :

عموم الفجيعة وجلالة الرزء .

البكاء على الفقيد .

زوال الصبر على المفجوع

ذم الدهر والأيام لاخترامهما الفقيد .

تولى العيش وذهابه وتغير الأشياء لفقده .

تخطى المنايا إلى الأشرف فالأشراف ، والأفضل فالأفضل .

ذكر السؤدد والمجد والعلا و بكائها على الميت وقبحها بعده .

ذكر انقطاع الأمل والرجاء من الطالبين وقعودهم عن الطلب .

ذكر سقوط الحزن وخفة المصائب بعد الفقيد .

ذكر شماتة الأعداء والحساد وتهديد القاتلين .

ذكر صبر المقتول واختياره القتل على الفرار .

ذكر تحقير القاتل وتهوين أمره .

ذكر القبور والدعاء لها بالسقيا وتشييع الميت ، وذكر النعش والكفن .

الذكر الجميل وحسن الحديث بعد الفقيد .

ذكر تعديل مناقب الميت بعده .

ذكر من يخلف الميت و يسد مسده .

مرثية الصغار .

* * *

وأما « باب البأس والنجدة » فيشتمل على الفصول الآتية :

ما قالاه فى وصف الجيش وكثافته .

ما قالاه فى الرأى والتدبير فى الحرب والمكر والخديعة وإمضاء العزم .

ما قالاه فى وصف الحرب.

ذكر وصف رجال الحرب .

ذكر تشبيه الأبطال بالسباع .

ما قالاه فى وصف الدروع .

ذكر وصف القوانس والبيض .

ذكر وصف السرايات .

ذكر وصف الخيل فى الحرب .

ذكر المسير إلى أرض العدو والنزول عليها ، والظفر والفتوح .

ذكر من انهزم ونجا بحشاشته ، ومن أسر .

ذكر الصلب على الجذوع وحمل الرءوس .

ذكر الحرب فى البحر .

ما قالاه فى حرب ذوى الأرحام ، والحض على صلحهم والصفح عنهم .

ما قالاه فى أوصاف الخيل .

* * *

وفى هذه الأمثلة ، ما يظهرك على ضخامة القسم الذى لم يسبق نشره من كتاب الموازنة .

* * *

ومن أجل ذلك كله ، قلت فى صدر كلامى : إنى أحمد الله إذ قدر لى أن أكون أول طابع لكتاب الموازنة ، وأظن أن عجب القارئ من قولى ذاك وإنكاره له قد زالا الآن .

* * *

والحق الذى لامرية فيه أن كتاب الموازنة خليق بإعجاب القراء ، جدير بإكبارهم . ولا أحسب أن أحداً منهم بعد قراءته له فى هذه الطبعة سينكر علىّ قولى : إن الآمدى أعظم نقاد الأدب العربى ، وإمامهم الذى لايضارع ولا يجارى . وإنه فى تاريخ النقد أمة وحده فى دقة منهجه ، وأصالة رأيه ، وعمق فكره

وحسن عرضه ، ونصاعة أسلوبه ، وشدة إخلاصه للمهمة الشاقة التي جرد عزمه لها ، وانتدب نفسه للنهوض بها ، وصبرها على تحمل أعبائها ، حتى خرج الكتاب من بين يديه مستحصداً قويماً ، وافياً بالغرض الذى أراغ إليه ، جامعاً لأشتات المعانى ، ملماً بأطراف الأحاديث التى يتطلبها مثل هذا البحث الكبير ؛ كما سنبين ذلك عند تحليل الكتاب ، وترجمة صاحبه ، ووصف مخطوطاته فى مقدمة الجزء الأخير إن شاء الله .

* * *

ولاريب فى أن ظهور كتاب الموازنة فى هذه الطبعة الكاملة سيرفع من قدر الآمدى ، وينبه من ذكره وما كان خاملا ، ولكن بعض الذكر أنبه من بعض ، كما يقول الشاعر القديم . وسيكون ظهورها كذلك فتحاً مبيناً ، ومصدراً خصيباً للأبحاث الجديدة فى النقد الأدبى ، وستكشف أضواؤه القوية مسارب الوهم ، ومزالق الخطإ فيما كتبه المحدثون عنه . وإن فى نصوصه لثقافاً متيناً يقيم منآدها ، ويصلح معوجها ، وسلاحاً صليباً يأتى على معظمها ، ويقلبه رأساً على عقب ، ويحفز الأحياء من كتابها إلى إنشائها من جديد ، وتأسيسها على دعائم قويمة من الأفكار والآراء التى اشتمل عليها الكتاب ، ولم يظهروا عليها إلا فى هذه الطبعة الكاملة التى بذلت وسعى فى نشرها ، وعاقنى مقامى فى الكويت عن تصحيح ملازمها فى أثناء طبعها .

* * *

وإنى — على نهجى الذى انتهجت منذ أول كتاب نشرت — أدعو النقاد إلى إظهارى على أوهامى فيها ، وتبيين ما دق عن فهمى من معانيها ، أوند عن نظرى من مبانيها ؛ وفاء بحق العلم عليهم ، وأداء لحق النصيحة فيه ، لأبلغ بالكتاب فيما يستأنف من الزمان ، أمثل ما أستطيع من الصحة والإتقان .

والنشر فن خفى المسالك ، عظيم المزالق ، جم المصاعب ، كثير المضايق ؛ وشواغل الفكر فيه متواترة ، ومتاعب البال وافرة ، ومبهظات العقل غامرة ، وجهود الفرد فى مضماره قاصرة ؛ يؤودها حفظ الصواب فى سائر نصوص الكتاب ، ويعجزها ضبط شوارد الأخطاء ، ورجعها جميعاً إلى أصلها ؛ فيأتى الناقد وهو موفور الجمام فيقصد قصدها ، ويسهل عليه قنصها .

ومن أجل ذلك قلت — وما أزال أقول — : إنه يجب على كل قارئ للكتب القديمة أن يعاون ناشريها بذكر مايراه فيها من أخطاء ؛ لتتخلص من شوائب التحريف والتصحيف الذى منيت به ، وتخرج للناس صحيحة كاملة . والله ولى التوفيق .

السيد أحمد صقر

الكويت فى { ٢٧ من ذى الحجة ١٣٧٩ ﻫ
٢٢ من يونيو ١٩٦٠ م }